

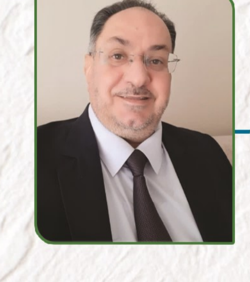
من تكلم العربية فهو عربي



مقال

أ.د. محمد محمود كالو

جامعة أديامان



اليوم العالمي للغة العربية هو يوم للاحتفال باللغة العربية ويوافق 18 كانون الأول من كل عام، وبهذه المناسبة أقول: إن اللغة العربية لغة حضارية عريقة، وهي أعرق اللغات السامية لفظاً وسعة، ومن أرقى لغات العالم دلالة، وتركيباً واشتقاقاً، وفصاحة، واختارها الله تعالى فأنزل بها القرآن الكريم، وبها خاطب الله سبحانه الأنبياء، وتبنّاها الدين الإسلامي لغة رسمية للتبليغ ونشر الرسالة، وبها دونت أصول كل العلوم التي نراها اليوم.

إن القرآن الكريم هو الذي وحَّد اللهجات العربية في بوتقة واحدة، فتحصنت اللغة العربية، ثم جاء المغول ليخنقوها، وقذفوها في مياه دجلة، إلا أنها لم تختنق ولم تغرقها مياه دجلة العارمة، فهبت اللغة العربية منتصبة على قدميْها.

وجاء (نابليون) يريد محوها ودفنها، فلم يستطع وأعلنت العربية عن وجودها.

وجاءت حركة (الاتحاد والترقي) في العهود الأخيرة من عمر الخلافة العثمانية، يريدون الكيد منها، فباءوا بالفشل الذريع.

وعقدت مؤتمرات (باريس) لمحو اللغة العربية من أرض الجزائر، فما استطاعوا أن يطفئوا نار حقدهم.

هذه اللغة العظيمة، أي شيء أكسبها هذا الخلود والبقاء؟

لا شك ولا ريب إنه كتاب الله (القرآن الكريم)، ولهذا نفهم كلام العرب الذي قالوه قبل عشرات القرون، بينما الفرنسيون والإنكليز وغيرهم لا يستطيعون أن يفهموا ما كُتب قبل أربعمائة عام، إلا بجهد جهيد، وبالاستعانة بالمعجمات لحل غموض اللغة التي يسمونها (الكلاسيكية) أو (القديمة) بعد أن تغيرت قواعدها، على عكس العربية.

ولقد أكد القرآن الكريم حقيقة عروبته في آيات كثيرة، منها قوله تبارك وتعالى: {إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون} [يوسف:2]. كما يجب علينا أن نلاحظ أن القرآن الكريم، لم يعبر بكلمة (لغة)، وإنما عبر بـ(اللسان) بمعنى اللغة.

وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ من تكلم بلسان العرب فهو عربي وإن لم ينحدر من سلالة العرب، فقد أورد المتقي الهندي في (كنز العمال) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ الرَّبَّ رَبٌّ وَاحِدٌ، وَالأَبَ أَبٌ وَاحِدٌ، وَلَيْسَتِ الْعَرَبِيَّةُ بِأَحَدِكُمْ مِنْ أَبٍ وَلا أُمٍّ، وَإِنَّمَا هِيَ لِسَانٌ، فَمَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ فَهُوَ عَرَبِيٌّ) [رواه السيوطي في الجامع الكبير، ورواه ابن عساكر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن مرسلاً].

واللغة العربية أيضاً، لغة الغنى والثراء والسعة، لغة ناضجة ومرنة قال الإمام الشافعي: "لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً"، وفي اللغة العربية كثير من الأسماء لمسمى واحد، كأسماء الأسد والحية والعسل، وممن ألف في المترادف، العلامة مجد الدين الفيروز أبادي صاحب (القاموس)، ألف فيه كتابا سماه: (الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف)، وأفرد خلقٌ من الأئمة كتباً في أسماء أشياء مخصوصة، فألف ابن خالويه كتاباً في (أسماء الأسد)، وكتاباً في (أسماء الحية)، ذكر أمثلة من ذلك (العسل) له ثمانون اسماً، أوردها صاحب (القاموس) في كتابه الذي سماه: (ترقيق الأسل لتصفيق العسل).

والعجب كل العجب من أولئك الذين يشكون من فقر اللغة العربية، وعجزها عن مواكبة العصر، والتطوُّر العلمي الهائل، ولله در الشاعر حافظ إبراهيم، الذي قال على لسان العربية:

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضُقْت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغوَّاص عن صَدَفاتي؟

هذه اللغة العربية الخالدة والمشرقة، أي شيء أكسبها هذا الخلود وهذا الإشراق؟ لا ريب أن الذي أكسبها الديمومة والبقاء والجاذبية هو القرآن الكريم، إنه قطب الرحى للأمة الإسلامية، لذلك مدَّ سلطان اللغة العربية على منطقة من أوسع مناطق الدنيا، واخترق بها قارات ثلاثاً هي: آسيا وأفريقيا وأوربا (الأندلس)، وجعل العربية هي اللغة العالمية المشتركة المنشودة، فكل مسلم يشعر أن العربية لغته لأن القرآن قد نزل بها.

ولقد سحرت اللغة العربية المستشرقة الألمانية (زيغريد هونكه) حين قالت: "كيف يستطيع الإنسان أن يُقاوم جمال هذه اللغة ومنطقها السليم، وسحرها الفريد؟ فجيران العرب أنفسهم في البلدان التي فتحوها سقطوا صَرْعَى سحر تلك اللغة".

وكان للغة العربية . بفضل الإسلام . أنصار ومحبون من غير العرب، وكان لها منهم علماء وأعلام عرَّبهم الإسلام، حتى كان منهم أصحاب المؤلفات الرائعة، في قواعد اللغة العربية وفي بلاغة القرآن الكريم، بل إن أعظم كتاب في النحو العربي هو كتاب سيبويه الفارسي.

ومن أعظم كتب العربية وفقهها (الخصائص) لأبي الفتح عثمان بن جني الرومي اليوناني.

وأشهر وأوثق مرجع لغوي في العربية (القاموس المحيط) لأبي طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزابادي وهو هندي.

وأشهر كتب إعجاز القرآن الكريم وأفضلها مؤلفوها من غير العرب، نذكر منهم:

من تكلم العربية فهو عربي

أ.د. محمد محمود كالو
جامعة أديامان

أحمد بن محمد الخطابي البستي الأفغاني.
وأبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني.
وعبد القاهر ابن عبد الرحمن الجرجاني.
وغيرهم كثير، ألفوا الكتب في مختلف الدراسات القرآنية، وفروع العربية وآدابها، وهكذا صاروا مضرب الأمثال، حتى أصبحنا إذا أردنا مدح أحد من علماء العرب، ألحقناه بأحدهم وشبهناه به فقلنا: فلان سيبويه عصره، أو زمخشري زمانه.

ذلك لأن اللغة العربية لغة الدين الحق الذي يؤمن به ملياران من الناس، ويغارون عليها، ويفضلونها على لغاتهم الأولى، ويرون أنها أفضل اللغات وأحقها بالحياة، وهي أقوى وسيلة من وسائل الترابط والوحدة بين العرب أنفسهم، وبينهم وبين المسلمين الذين يتكلمون بها في البلاد الإسلامية، وهي أقوى من رابطة النسب والدم، لأن الدم لا يمكن استصفاؤه بسبب التصاهر والتزاوج، والعربية بما تحمله من رسالة هذا الدين وكتابه، هي أساس العلاقات الحضارية والثقافية والاجتماعية بين العرب والمسلمين، بها تتوحد أساليب التفكير والتعبير، ويمكن التفاهم والتعاون على البر والتقوى.

وهكذا ظلت اللغة العربية لغة العلم فترة طويلة من الزمن، فهذا كتاب (القانون في الطب) لابن سينا ظل يُدرس في الجامعات الأوروبية لمدة ستة قرون كاملة، ومكتبة قرطبة آنذاك كانت من أكبر المكتبات في أوروبا.

لكننا نشعر بالخجل عندما نقرأ عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، كيف عبر الأرض بحثاً عن دين سمع به ينتشر، فجاءه واعتنقه وعاش له وبه، ونقل أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، حتى قال عنه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لما سُئل عنه: (أدركَ العِلمَ الأوَّلِ والعِلمَ الآخِرِ، بَحرٌ لا يُدرَكُ قَعرُهُ، وهُوَ مِنّا أهلَ البَيتِ) [أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف]، فهل كان سلمان عربياً؟!

وعندما فتح المسلمون شبه الجزيرة الإيبيرية -الأندلس- كان القُوطي نسبة إلى الدولة القُوطية التي فتحها المسلمين يقول لمن أسدى له خدمة وأراد شكره: "شكراً" بلغة عربية فصيحة، ويقول لحبيبته عندما يُعبر لها عن حبه: "أُحِبُّكِ"، متباهياً بلغة دولة من هو تحت سيطرتها اقتصادياً وعلمياً، إلا أنهم درسوا العلوم وترجموها إلى لغتهم، فانقلب حالنا اليوم رأساً على عقب.
وقد قال الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي -غفر الله لنا وله- في وحي القلم: "ما ذَلّت لغةُ شعبٍ إلا ذل، ولا انحطّت إلا كان أمرُهُ في ذهابٍ وإدبارٍ".

لكن شبابنا اليوم أصبحوا للأسف يستهزئون باللغة العربية، ويفتخرون بأنهم يتكلمون لغة غيرنا، حتى أصبح التكلم بالإنجليزية أو الفرنسية علامة من علامات التحضر والرقي، والتكلم بالعربية صار للتندر فقط، والاستهزاء أحياناً، هذا التنكر للغة هو من علامات الهزيمة النفسية التي نعيشها.

تأمل معي لو أن أحدهم سمى شركته باسم (تفاحة) لسخر منه القاصي والداني، بينما لا نجد إشكالاً في تسمية شركة بـ (APPLE) ، لا تجد مجتمعًا يسخر من لغته ويتنكر لها كمجتمعاتنا، صحيح أن الهيمنة الفكرية الغربية طغت علينا، لكن اللغة تمثل آخر خطوط المقاومة في وجه هذه الهيمنة، فإن سقط هذا الخط سقطنا جميعاً، فلا يمكن لأمة أن تنهض من تخلفها، دون أن تحافظ على هويتها الثقافية، وفي مقدمتها اللغة، والشعب الذي لا يعتز بلغته، لا يمكنه أن يصنع حضا

